

"نجمّة مائلة بِرْفَق" كتابة كريم قطان، ترجمة من الإنجليزية لـ زياد شكرون

بحسب الأشخاص المعنيين وتبعاً لطبيعة الموقف، يمكن للعالم العربي أن يعني الكثير من الأشياء المختلفة للأشخاص المختلفة - غالباً ما يكون اختزالاً لبلد ما أو لمنطقة جغرافية واسعة تضم أماكن ذات ترابط ما غير محدد. وفي كثير من الأحيان، قد لا يعني شيئاً على الإطلاق. «ما هو العالم العربي؟» - عندما يُطرح هذا السؤال المتكرر والمنهك، يتجلى التأثير المتفطرس للقوى المهيمنة في سعيها إلى تعريف هذا الكم الهائل من الثقافات والمجتمعات وحصرها ضمن تلك المنطقة الوهميّة. إلا أنني في هذه المقالة، سوف أستخدم مصطلح «العالم العربي» كما لو كان يشير إلى شيء موجود بالفعل.

/ / /

عندما تأتي من هذا المكان، من الصعب ألا نسمح لأنفسنا بالإنجراف نحو شكل من أشكال القنوط والكآبة، نحو ما يشبه الإرهاق أو الإستنزاف، أو نحو يأس بات عتيقاً بالياً. هذا لا يعني أن البلدان التي تضمها هذه الأرض الوهمية مصيرها هو الهلاك والوهن، بل على العكس، إذ لطالما كان العالم العربي منطقة حيويّة نجد في معظم بلدانها، وخاصة في المجال الثقافي، مجموعة من الأفراد والمؤسسات والمنظومات والفضاءات المثيرة والفريدة.

/ / /

في سعيي إلى تحديد ما يفترض بأنه يشكّل بعض الخصائص المشتركة لهذا المكان، دُعيتُ، إلى جانب مجموعة من الأفراد العاملين في هذه المشاهد الثقافية، للالتقاء لمدة أربعة أيام في أوائل أيام الصيف الماضي في مدينة «دلفي» اليونانية. كان لهذا اللقاء التي نظمتها «مفردات» في ذلك الموقع النبوي أن يحث جميع «المتوطنون» على طرح السؤال التالي على أنفسهم: «أين هو المستقبل؟». طرح السؤال مستبدلاً لكلمة «ما» التقليدية والمألوفة، بكلمة «أين»، بغية استجلاء مكان المستقبل وموقعه المحدد، ومؤكداً على ما ندركه مسبقاً: ها هو المستقبل هنا، بكل ما يحمله من صالح وطالح وكوارثي وجميل، علينا فقط العثور عليه؟

/ / /

أثناء وجودنا معاً للبحث عن إجابات، كنّا نعود طوال الوقت إلى نفس الشكوك والإلتباسات: ما فائدة ما نمارسه؟ كيف نتأكد من أن ما نسميه



«ثقافة» أو «فن» لا يقتصر على دائرة من القلائل المحظوظين الذين
ينعمون بالمال وسهولة التنقل وإجادة اللغات الأجنبية؟ كيف لنا أن نفجّر
هذه الفقاعة المثالية والمهيوية من أجل المشاركة الفعلية في حاضر
ومستقبل هذا العالم المزعوم؟

/ / /

لا أستطيع أن أتذكر بالضبط أي ورقة من أوراق التاروت كانت تحاول سارة،
وهي فنانة تقرأ البخت بين الحين والآخر، أن تروي على مسامع الحاضرين
في آخر اجتماع لنا هناك. ولكنني أذكر أن جميع الأوراق كانت أشبه بخلصات
أو نكات تشير إلى إخفاقات ومُثل كل واحد منّا، وإلى النفاق والإدعاء الذي
نعيش فيه جميعاً، وإلى القدرات التي يمكننا حشدنا سواءً بمفردنا أو
مجتمعين. راحت أوراق التاروت تتطابق مع أفكارنا وأحوالنا بشكلٍ أسرٍ وأخذ،
وإن بطريقة مبهمة وأحياناً ملتبسة، إذ كشفت عن سرديات وتصورات
محتملة للقضايا التي تناولناها خلال اجتماعنا هذا، ووضعت إطاراً لبحثنا
عن أراضٍ المستقبل تلك.

/ / /

عندما تحدثتُ، وذلك في اليوم الأخير أيضاً، قلت إنني سأحاول أن أحتضن
روح الكارثة، وبذلك أعني انحراف أحد نجوم السماء عن مساره، يبدو لي
العالم العربي، من كل الأحاديث التي سمعتها خلال الأيام الأربعة، في
انحراف أو ميلانٍ متواصل (تصطمم النجوم بعضها وتتضعع، وغالباً ما
تكون متقلبة غدارة ولا يعوّل عليها على الإطلاق). لم أتوقّف عن التفكير
فيما قد تعنيه بالنسبة لنا كلمتي «عالم» و«عربي» مجتمعين. أجمع كلمة
«عالم» وأؤثت كلمة «عربي» فأقول: عوالم عربية. غير أنها ليست نتيجة
مرضية بالنسبة لي، باستثناء ربما - أفكر بينما تكشف سارة عن ورقة
«المجنون» - مشاركتنا لبعض النجوم ولميلانها الذي جعلنا متناغمين فيما
بيننا. وبقدر ما توجد «عوالم»، توجد أيضاً «ممكنات». خلّق تجمعا المنفتح
والهش، وأحياناً الفوضوي بطريقة ممتعة، حيناً بدا مليئاً بالمفاجآت
وبالعوالم الخفية التي تنتظر أن تتجلّى وتتكشف. تحلّى جميع
المشاركين/ات بالحذر والتيقّظ، أحياناً حتّى على عدم التفوّه بغلطة، ممّا
أدّى إلى إثراء المحادثات واختلافات الرأي أثناء العروض التقديمية وبين
الفترات الفاصلة بينها.

/ / /



ان الحدود المضطربة والتقريبية لمعنى حدث «متواطئون» هو أكثر ما أذكره الآن: كان عدم القدرة على التنبؤ يسيطر على التباساتنا وارتباكنا التي تماثل ما نفعله جميعاً في مجالتنا. أذكر جيداً لحظة انفجر الجميع ضحكاً عندما سحبت سارة ورقة «المجنون» من رزمتها. فالمجنون هو شخصية متهورّة ولكن ملهمة، ساذجة بطريقة لا تُحتمل، ولكن متفائلة بلا حدود - عليه فقط أن يحرص على عدم الوقوع في الهاوية القابعة أمام قدميه.

/ / /

إنبثقت من هذه الحدود، تقريبية كانت أو غير ذلك، عوالمٌ وتوطئاتٌ لعلاقات وتحولات لا يمكن إنكارها حتى من قبل أكثر الحاضرين تعباً وإرهاقاً، مثلي أنا. أعتقد أن أكثر جوانب هذه التجربة قوّة يتمثّل في حنّنا على تخمين وتقدير، عند كل منعطف، ما الذي سيحدث، وما هو نوع المحادثات التي ستجري وحول أي موضوعات، وكيف سنقوم باستكشافها.

/ / /

في أول يوم لنا في «دلفي»، قادتنا أمل، إحدى زميلاتنا المتواطئات، جميعاً إلى «معبد أثينا پرونايا» المجاور للمشاركة جماعياً في طقس صغير طلبت منا كتابة أمنياتنا على قصاصات من الورق ثم حرقها. لم يكن الأمر يتعلّق بالرغبة في أن تتحقق تلك الأمنيات، بل بالمشاركة بشكل جماعي في منظومة من المُثُل والأهداف. إنتهى ذاك الطقس المركّب، المازح وإنما الجاد في الوقت نفسه، عندما قمنا بحرق أوراقنا مساءً حول سواء في جناح كليّة الفنون الجميلة، حيث عُقد اجتماعنا على نحوٍ معبّر وصادق، قال أحدنا عندما اجتمعنا حول النيران لنحرق أمنياتنا: «رائحتها كالسّمك». بينما وقف آخرون في الجوار ينظرون إلى القمر لمعرفة ما إذا شارف شهر رمضان على نهايته. ولكن للأسف، فإن قمرنا المائل يرفق لم يفصح عن شكله بيّسر، وتهنا جميعاً في محاولة تخمين ما الذي يريد إخبارنا به.

/ / /

